وقال ﷻ:﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ..﴾ التحريم ٥.

وقال ﷻ عن مقام التوبة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً.. ﴾ التحريم ٨ .

وعن المراقبة يقول ﷻ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.﴾ الملك ١٢ .

وتكلم عن التهجد فقال ﷻ:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . ﴾ المزمل ١-٤ .

وأن كل خير عند الله ﷻ :

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ .. ﴾ المزمل ٢٠ .

وأمر الرسول ﷺ بالصبر ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ المدثر ٧ .

وأن طبيعة النفس تحب الدنيا وتنسى الأخرة :

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ . ﴾ القيامة ٢٠-٢١ .

وقد أعطى الإنسان الاختيار في السير إلى طريق الله بلا إجبار على ذلك.

قال ﷻ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ الإنسان ٣ .

ووصف النفس البشرية بأوصاف ثلاثة:

١- أمارة بالسوء :﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ يوسف ٥٣ .

٢- نفس لوامة :﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ القيامة ٢ .

٣- النفس المطمئنة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ الفجر ٢٧ .

وقد وصف الدنيا وما فيها من متع بالمال والولد ، قال ﷻ : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾الكهف ٤٥ .

وأن الإنسان لا يفرح بمتاع الحياة الدنيا بل بمتاع الآخرة قال ﷻ : ﴿و فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾الرعد ٢٦.

وقال ﷻ : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ الحديد ٢٠ .

وقد أباح للإنسان أن يتمتع بنعمه حسب المنهج الإسلامي :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف ٣٢ .

وقال ﷻ : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ﴾ القصص ٧٧ .

ولقد أثبت بهذه الآيات القرآنية على سبيل المثال لا الحصر وهي في جملتها منهج تربوي روحي يسمو بالنفس والروح معاً ويعلم الله صلاح هذه النفس وما يطهرها وينقيها : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك١٤ .

وقال رسول الله ﷺ :

" إن من أمتي مكلمين ومحدثين وإن عمر منهم"(٦١).

وأما مقام الحب فقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ المائدة ٥٤ .

الحب من الله للإنسان وحب الإنسان لله ، وكذلك الصبر قال ﷻ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ٢٠٠.

(٦١) رواه مسلم في صحيحه.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ الشورى ٤٣.

وقد وصف الله ﷻ القرآن بأنه :

﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة ٢ .

وأن فيه شفاء ورحمة :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء ٨٢ .

الرسول هو القدوة والمثل الأعلى .

قال الله ﷻ :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ الأحزاب ٢١ .

وقال رسول الله ﷺ : " أنما أنا رحمة مهداة " (٦٢)

وقال رسول الله ﷺ : " أدبني ربي فأحسن تأديبي "(٦٣).

أقوال الرسول ﷺ عن الزهد في الدنيا .

قال ﷺ لأبي هريرة ﷺ يوماً: " يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ فقلت : بلى يا رسول الله . فاخذ بيدي وأتى بواد من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس ، وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال ﷺ : يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم ، وتأمل آمالكم ، ثم هي اليوم عظام بلا جلد ثم هي صائرة رمادا ، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها في بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تقصفها ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك "(٦٤)

يقول أبو هريرة ﷺ: فما برحنا حتى اشتد بكاؤه .

---

(٦٢) رواه الدارمي ــ المقدمة رقم ١٥ ، والحاكم عن أبي هريرة ﷺ وابن سعد الحكيم عن أبي صالح مرسلا ــ صحيح الجامع الصغير رقم ٢٣٤٥ .

(٦٣) رواه البخاري ومسلم.

(٦٤) رواه البخاري في باب الرقاق.

وحياة الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها كلها تأمل وفكر وذكر وشكر ولم يعرف في تاريخ البشرية أن أحداً نقل عنه من مولده إلى موته تفاصيل حياته من وقت يقظته من نومه إلى أن يعود مرة أخرى إلى فراشه غير رسول الله ﷺ ، أوراده ، أذكاره ، معاملاته ، سلمه وحربه ، وكان في كل ذلك نموذجاً يُحتذى به ، وكان القرآن معنى وكان ﷺ يجسد هذا المعنى ، كان قرآناً يمشي على الأرض ، كان بين الناس رجلاً وكان بين الرجال بطلاً ، وكان بين الأبطال نموذجاً وقدوة ، وصدق الله إذ يقول متوجاً إياه بتاج فريد : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم ٤ .

كان ﷺ رحمة مهداة ، قال ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء ١٠٧ .

قد جمع خصال الخير في سموها خلقاً وتطبيقاً ونموذجاً ، بهذا عُرف رجال التصوف بإقتدائهم برسول الله ﷺ ، شربوا من المنبع الصافي فكانوا أئمة قادوا الدنيا بسلوكهم والتزامهم بما أمر به الله وطبقه رسول الله ﷺ ، من هذه الجامعة تخرج القادة الذين قادوا الدنيا بشرع الله ، فدانت لهم الرءوس المتكبرة ، وخضعت لهم النفوس المتغطرسة في ظل عدالة الإسلام الشاملة.

ومع كل هذه الآيات القرآنية نجد أراءً أخرى تقول في التصوف غير هذا فقد ذهب فريق من الناس بالهجوم على التصوف ورجاله قائلين بان التصوف غريب عن الإسلام فلا يوجد في الإسلام تصوف بل هو مستمد من الرهبانية من نصارى الشام. وهذا ما قاله "**ماركس**" .

ورأى آخر أن التصوف مأخوذ من **الأفلاطونية** .

وثالث يقول إنه مأخوذ من الزرادشتيه من الفرس ، أو من فيدا الهنود أو هو مجموع من هذه الطقوس .

ونسأل من يقول هذا : هل الإسلام بمنهجه الذي اتصف بالكمال والشمول والتمام محتاج إلى منهج خارجي ؟ أم المقصود هو الهجوم لمجرد المخالفة وضرب كل ما هو جميل في المنهج الإسلامي ؟

الرد على هذا الهجوم والمفتريات .

يقول " **نيكلسون**" : " إن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها إبان عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث ."

وإذا كان هناك من تشابه بين التصوف في منهج الإسلام وغيره من الطقوس الأخرى فهذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى هجوم وهدم ، ذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة فإن العقائد الصحيحة تتحد في جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور وبما تتركه من بصمات.

يقول "**جولدزيهر**" : " إن تفضيل الفقر على الغنى هذا منقول عن الرهبانية التي تسربت إلى البيئة الإسلامية غير صحيح ، بل الصحيح هو أن يكون محمد في حياته وفي أحاديثه قد سار على نهج القرآن ، ودعا إليه من هذه المثل العليا ، في القول والعمل ، وفي الإعراض عن زينة الدنيا "([٦٥]).

ويقول "**نيكلسون**" : " إلى أن الذكر والصمت اللذين يصطنعهما الصوفية في رياضتهم مأخوذة عن النصرانية"([٦٦])

([٦٥]) الحياة الروحية في الإسلام. د / محمد مصطفي حلمي ص٤٠.
([٦٦]) المرجع السابق ص٤٥.

ويُرد على قوله هذا بأن القرآن الكريم وحياة الرسول ﷺ القولية والفعلية فيها حشد كبير من الذكر والتفكر مثل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . ﴾ آل عمران ١٩٠-١٩١ .

وقد أمر الله المؤمنين بذكره وتسبيحه قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ الأحزاب ٤١-٤٢ .

كما أمر أن يذكر المؤمن نعم الله عليه قال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾ الأحزاب ٩ .

وقال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ .﴾ البقرة ١٥٢

ويرد على المفتريات التي ادعاها المستشرقون على التصوف الإسلامي من أنه منقول عن الرهبانية النصرانية أو اليونانية أو الهندية ، فيجاب على ذلك بأن التصوف الإسلامي من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري لم يكن يعرف سوى المصدر الإسلامي ، وأكبر شاهد على ذلك **الإمام الغزالي** الذي درس الفلسفة وكان له باع طويل فيها وهاجمهم وفند مذاهبهم وآراءهم ومع هذا فقد أثرى الحياة الروحية في إحياء علوم الدين وأقام التصوف على الكتاب والسنة ، فلم يتعرض لمصدر فلسفي أو هندي أو نصراني بل كان إسلامياً خالصاً.

ولأستاذنا / **الدكتور عبد الحليم محمود** كلام طيب حدد فيه قضية النزاع قال : " لقد وقف الكاتبون من التصوف مواقفهم من الثقافة الكسبية التي يتأتى فيها التأثر والتطور والتقليد فالكاتب أو الشاعر أو المفكر على وجه

العموم الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله وبما يتشرب به من بيئته ونتاجه إنما هو أثر لما دخل حياته من البيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصالته التي تسمو عن أن يكون صدى للوسط الذي يعيش فيه ، ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادي"(٦٧)

فالتصوف إذا ليس ثقافة كسبية تتغير بتغير الثقافات أو الاتجاهات ، ولكنه يأتي بعد مجاهدة للنفس حتى يفيض الله على المريد فيذوق من هذا الفيض، ويشاهد ما يريد الله له مشاهدته في خلوته ، وليست قضية التصوف من القضايا التي يستطيع إنسان بعد قراءة مجموعة من الكتب المختلفة في الثقافة أن يصبح بها صوفيا ويحكم على التصوف والصوفية.

وإنما التصوف باب الخواص من عباد الله اختارهم بعد جهاد مع أنفسهم والتزامهم بأوامر الله سبحانه حتى زكت أنفسهم وأشرقت قلوبهم ، وإذا فالمصادر الخارجية لا يتأتى الحديث عنها مهما كانت هذه المصادر فالتصوف فطرة واستعداد وقوة إرادة وجهاد متواصل مع النفس يتوج كل هذا مصدر النور والهداية والمدد الإلهي .

ونخلص من هذا أن التصوف في منهجه وأسسه إسلامي خالص غير متأثر بأي فكر خارجي ؛ لأنه فيض إلهي ، والصرح الإسلامي غير محتاج إلى ثقافات خارجية بل له الهيمنة على جميع الثقافات ، فالجميع محتاج إليه وهو غير محتاج إلى المزيد من غيره ، فهو المنهج الوحيد الذي له التمام والكمال والشمول ، قال سبحانه ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** .. ﴾ المائدة ٣ .

(٦٧) مقدمة التصوف د/عبد الحليم محمود ص٥٠

وقال ﷺ:﴿ **الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.**﴾الشورى ١٣ .
ونضرب لمثال الزهد في الإسلام والزهد في رهبنه النصارى أن الزهد في الإسلام مرتبط بالأوامر القرآنية ولكنه مع هذا لا يحبذ ترك العمل والتواكل وانتظار الصدقات والمعونات من الغير كما هو الحال في الرهبنة عند النصارى ، فالزهد الذي دعا إليه الإسلام متأثر بنظام الإسلام يرى في العمل لكسب القوت ضرورة كبرى لتحقيق تمام الإيمان ، فنظرية التوكل عند الصوفي ليس فيها ترك العمل وإنما السعي والاعتماد على النفس في كسب المعاش ، وهذا هو الفرق بين زهد الرهبانية وزهد البراهمة والزهد في المنهج الإسلامي ، ولم يكن التصوف يدعو إلى السلبية بل كان الانقطاع للعبادة موقوتا بفترات غير فترات العمل ، فقد نظم الإسلام وقت المسلم ، و الصلاة أكبر دليل على ذلك .
وهناك فرق بين التوكل والتواكل :

﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ الطلاق٣ .

وسنعرض لبعض شخصيات التصوف في العهد الأول .

التصوف من حياة الرسول ﷺ.

** **قبل البعثه:** إذا تصفحنا التاريخ الإسلامي وجدنا أن رسول الله ﷺ قبل البعثة كان يذهب إلى غار حراء ويتعبد فيه ، وهذه هي الخلوة في التصوف الإسلامي ، إنها بعد عن دنيا الناس ولحظات تأمل ينقطع فيها الإنسان عن ظواهر الوجود ، سعيا وراء الحقيقة ، فرسول الله ﷺ ترك العمران في مكة وذهب بعيدا عن الناس وما يشتغلون به ، وتحمل ظلمة الغار لأنه يعيش في نور داخلي .

وقد تحدث عن فائدة هذه الخلوة **الإمام الغزالي** قال:

الفائدة الأولى : التفرغ للعبادة والفكر ، والاستئناس بمناجاة الله ﷻ عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله ﷻ من أمر الدنيا والآخرة وملكوت السماوات والأرض ، فإن ذلك يستدعى فراغا ، ولا فراغ مع المخالطة ، فالرسول ﷺ في ابتداء أمره كان يتبتل في غار حراء، وينعزل إليه ، حتى قوي فيه نور النبوة"(٦٨)

وكان أول ما بدأ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء"(٦٩)

ونحن عندما ننظر إلى فعل الرسولﷺ نجد أنه كان يحب أن يخلو بنفسه ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وهذه وتلك لا دخل للإنسان فيها ولا يمكن أن يقلدا أحدا في حبه للعزلة ، والرؤية من عند الله سبحانه ، وإذا كان حب الخلوة محببا إلى الرسول ﷺ قبل نزول الوحي فمعنى هذا أن الخلوة تعين على التفكير والتأمل وأنها ظاهرة إنسانية ، كما أن نزول الوحي على الرسول ﷺ وهو في خلوته دليل إقرار الإسلام لها ، والإسلام جاء ليبطل العادات الفاسدة ويبقى على ما يتفق مع منهجه في وصول الإنسانية إلى ذروتها ، وتزويد الإنسان بوسائلها ، حتى تصفو النفس وتستعد لاستقبال ما يرسل إليها من عالم الغيب ، وهذا ما حدث للنبي الكريم ﷺ أثناء خلوته ، أليس هذا من صميم التصوف الإسلامي ؟

---

(٦٨) إحياء علوم الدين ــ الإمام الغزالي ج٢ ص٢٠١ .

(٦٩) صحيح البخاري ، عن عائشة في باب بدء الوحي ــ بيروت ص٢٠

من أقوال الرسول ﷺ.

** بيان أسس العقيدة :

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **سلوني** " ، فـــهابوه أن يسألوه ، فجاء رجل وجلس عند ركبته ، فقال : يا رسول الله ما الإسلام؟ قال : " **ألا تشرك بالله شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصـــوم رمضان** " قال : صدقت ، قال : يا رسول الله ما الإيمان ؟

قال : **أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتابه ، ولقائه ، ورســله ، وتؤمــن بالبعث ، وتؤمن بالقدر كله ، قال صدقت** ، قال : يـــا رســول الله مــا الإحسان ؟

قال : **أن تخشى الله كأنك تراه ، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك**"(٧٠)

(٧٠) صحيح مسلم باب الإيمان والإسلام والإحسان ج١ شـــرح النـــووي ــ ابـــن حبـــان ج١ ص١٨٠.

الفصل السادس

نماذج من رجال القرن الأول الهجري .

١- أبو ذر الغفاري ﷺ .
٢- أبو حذيفة بن اليماني ﷺ .
٣- سلمان الفارسي ﷺ .
٤- الحسن البصري ﷺ .

(١) أبو ذر الغفاري ﷺ.

كان أبو ذر ﷺ زاهدا تقيا ورعا ، متمسكا بتعاليم الدين الإسلامي ، وعاش مع الرسول ﷺ ومع الخلفاء الراشدين الذين كان مشهودا لهم بالزهد والورع ، وهو رابع من اعتنق الإسلام من العرب ، ومات بالربذة ودفن بها سنة ٣٢هـ .

(٢) حذيفة بن اليمان ﷺ.

ظهر حذيفة ﷺ في وقت شرح فيه معاني القرآن واستجلاء معانيه ، والأحاديث ومدلولاتها ، فتميز المجتمع الإسلامي بأنه يستقي فكره وثقافته من الكتاب والسنة وظهرت التطور في المعاملات الدينية من حلال وحرام ومكروه في دائرة الفقه ، وكانت ظاهرة الزهد واضحة في البيئة الإسلامية ، وتوفي سنة ٣٦هـ .

(٣) سلمان الفارسي ﷺ.

يروى أن رسول الله ﷺ قال : " سلمان منا أهل البيت" (٧١)
كان ينسب إليه أن الله أعطاه العلم اللدني الذي يستطيع به أن يؤول القرآن الكريم ويستخرج مفهومه الباطني ، كما قيل عنه أنه يستطيع تفسير آي

(٧١) رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف،ضعيف جدا ـ ضعيف الجامع الصغير ٣٢٧٢.

المتشابه من كتاب الله ، وجعله فريق من الشيعة على رأس الحركة الشيعية التي كان لها دورها في تفريق صفوف المسلمين وتقسيمها إلى طائفتين :

١- أهل السنة والجماعة . ٢- أهل الشيعة.

فالطائفة الأولى يتبعون تعاليم الإسلام في سهولة ويسر دون خروج ولا تأويل ملتزمين بما يفهمون من ظاهر النص ، هذه الطائفة تأخذ الأمر من الرسول مباشرة تهتدي بهديه وتأتمر بأمره.

أما الطائفة الثانية فهم الغلاة ، منهم من جعلوا من "سلمان" مصدرا روحيا لحركة التشيع ، وجعلوه صاحب تأويل ونسبوا إليه معرفة التأويل من قبل الوحي.([٧٢]) وتوفي سنة ٣٦هـ

(٤) الحسن البصري ﷺ.

ولد الحسن البصري بالمدينة سنة ٢١هـ وقد أتاحت له نشأته بالمدينة أن يجالس أصحاب رسول الله ﷺ .

وعرف الحسن البصري بتقواه والبعد عن متع الدنيا ، كما عرف بغزارة علمه وفصاحة لسانه في الخطب وعلم الكلام ، وكان من علماء المذهب الاعتزالي مختلطا بواصل بن عطاء في البصرة إلا أن صفاء العبادة والنسك والورع والزهد في متع الحياة الدنيا أضفت عليه سمات رجال التصوف مما جعله من أوائل هؤلاء الرجال الذين عرفوا بالصلاح والتقوى.

ويعتبر الحسن البصري من طبقة الرعيل الأول من الزهاد في المجتمع الإسلامي ، وتوفي سنة ١١٠هـ.

([٧٢]) الحركة الصوفية في الإسلام ــ د/ أبو ريان ص٣٣ بتصرف.

الفصل السابع .

تمهيد لمدارس التصوف .

** تمهيد :

في مدينة البصرة كان أول ازدهار الحركة الصوفية ، فقد بدأ النظر في سر العبادات وأحوال القلوب المؤمنة واشتدت حركة الزهد وأصبح فقه القلوب هو المسيطر على رجال متصوفة البصرة وفي المقابل كان في الكوفة رجال الفقه والبحث في الأحكام الفقهية كما اختصت بالبحث في الفقه الظاهري ودراسة الشعائر الدينية وتوسيع دائرة الإلزام الديني وكانت **الكوفة** هي المنارة في هذا العلم وذاع صيتها في هذا المجال وكانت قبله لمن يريد معرفة الفقه الظاهري ، وأرادت **البصرة** أن يكون لها السبق في الفقه الباطني وأن يكون لها مريدوها وأن تتوجه إليها الأنظار فعزف رجالها عن متع الدنيا ، فأصبح الصراع على أشده بين أهل الكوفة الذين عرفوا بدراسة الأحكام الشرعية أو فقه الظاهر، وبين أهل البصرة الذين عرفوا بدراسة علم أحوال القلوب ، أو أهل الباطن.

فنشأ التصوف في البصرة لأن رجالها شغلوا بتتبع آثار العبادة في النفس، وهل المقصود من الوضوء طهارة الأعضاء الظاهرة أم أن كل طهارة ظاهرية لها تأثير باطني ؟ فلم ينشغل أهل البصرة بدراسة الرسوم الظاهرة لهذه العبادات ، بل رسموا لأنفسهم طريق الحياة الروحية التي لها منهجها ورجالها ومريدوها ، يقول **الإمام القشيري** : "إن كل الخلق قعدوا على الرسوم ، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق ، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع ، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق"([٧٣]).

([٧٣]) الرسالة القشيرية ص٣٠٢

ومن هذا النص يتبين تلك المقابلة التي أقامها العلماء وبين الشريعة والحقيقة.

فالشريعة هي ما ذكر في علم الفقه من أحكام العبادات ، أما الحقيقة فهي موضوع الإدراك الذوقي في علم التصوف ، فعرف عنهم الكلام في الأحوال والمقامات ثم القبض والبسط والحب والرجاء والشوق وغير ذلك من الأحوال التي جعلت الناس ينصرفون عن أهل الفقه الظاهري ويتجهون إلى التصوف مما أثار غضبهم وتآمروا ضدهم وأظهروا عداوتهم وقلبوا الحكام ضدهم مما أودى بالكثير منهم إلى نهايات لا يحمد عقباها.

وظهر العداء بين الفقهاء والصوفية بعد أن أصبح للصوفية مدارس وطوائف ، وتجمع المريدون بين يدي مشايخهم وأقبل الناس على حلقاتهم وساحاتهم يغترفون من معين علمهم ويطلبون البركات من مشايخهم ؛ وبهذا أصبح الصوفية مركز الإشعاع الروحي وأصبحوا يحتلون الصدارة عند كافة المسلمين ، وكان الفقهاء هم الذين يحتلون هذه المكانة في المجتمع الإسلامي منذ أواخر القرن الأول الهجري لهذا غضب الفقهاء من رجال التصوف لأنهم وجدوا أن هناك طائفة ظهرت وقد أخذ المسلمون يلتفون حولهم وبدأت تحتل مكانتهم في محيط العبادات الإسلامية ، كما أنها حظيت بحب الخلفاء واحترامهم لهم ، وعطف السلاطين عليهم ، فبدأوا يحيكون المؤامرات ضدهم وينقلون عنهم شطحاتهم التي تظهرهم بمظهر الزنادقة والملاحدة المنحرفين عن العقيدة، ويصدرون ضدهم الأحكام التي توجب قتلهم وتشريدهم وكان الصوفية يقابلون ذلك بضبط النفس وقوة الإرادة وتحمل الأذى وتفويض الأمر لله

ﷺ وقد سمى التصوف في هذه الفترة "بعلم الإرادة " أي العلم الذي ينمي الإرادة ويقويها فيكبح جماح النفس الشريرة ويمسك بزمامها حتى لا توقعه في الهلاك.

يقول ابن القيم : "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق . وهو علم مبنى على الإرادة ، ويشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ولهذا سمي علم الباطن ، كما أن الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سمي علم الظاهر"([٧٤])

وسنعرض للمدارس الصوفية.

مدارس التصوف الإسلامي .

لم يظهر التصوف في الصدر الأول بصورة جماعية ، بل كان في صورة فردية رائدها الدين الإسلامي وحده وكثرة تلاوة القرآن الكريم ، كان المسلم عندما يسأل عن سبب قيامه بأي عمل طيب يقول لأني رأيت رسول الله ﷺ يفعله ، بهذه الفطرة النقية كان الجواب ، وظل الزهد على هذا حتى أصبح على مر العصور له شيوخه ومريدوه ، وكانوا يعقدون الحلقات للوعظ والقصص الديني فتحولت مجالسهم إلى بكائين لخشوع قلوبهم وصفائها ، مما كان للزهد مواصفات ظهر بها ، أهمها أمران :-

أولا : من الناحية الأخلاقية التي ظهرت في سلوك الزاهد ، وكان من أهمها حسن التوكل على الله في كل أمر مع السعي في الأسباب ، وهذا هو الفرق بين التوكل والتواكل.

ثانيا: كثرة ذكر الله وكثرة صلاة النوافل.

([٧٤]) مدارج السالكين ابن القيم ص٤٠

ونشأت المدارس الصوفية في أماكن مختلفة ، منها :-

أولا : مدرسة المدينة ومدرسة البصرة.

ثانيا : مدرسة الكوفة ومدرسة الأهواز.

ثالثا : مدرسة مصر ومدرسة خراسان.

*** مدرسة المدينة :-**

تعتبر هذه المدرسة هي المدرسة الأولى للتصوف الإسلامي لعظمة مكانتها ؛ ولأنها العاصمة الأولى التي أشرقت على الدنيا كلها بنور رسول الله ﷺ فلا غرو أن تكون المشكاة التي تنير للسالكين طريق الرشاد بسبب تمسكهم بالكتاب والسنة فالخلفاء الراشدون رضي الله عنهم عاشوا كالنجوم يهتدى بتوجيهاتهم من يريد الوصول إلى مرضاة الله ، وكذلك أهل الصفة كانوا نموذجا في الزهد وعفة النفس التي تحدث عنها القرآن الكريم : ﴿ **الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا** ﴾ البقرة ٢٧٣ .

ظل الأمر على هذا إلى أن انتقلت الخلافة الإسلامية من المدينة إلى دمشق في عهد بنى أمية ، فانغمسوا في متع الحياة الدنيا وزخرفها مما جعل المتمسكين بدينهم يقاومونهم اجتماعيا وسياسيا.

وكان ممن عارض بنى أمية "**سعيد بن المسيب**"(ت٩٠هـ) وكان يسير على المنهج الإسلامي في تصوفه.

وقامت معارضة عنيفة على نظام بنى أمية في اليمن والكوفة وكان يمثل الجانب اليمنى في المعارضة "**طاووس بن كيسان اليمنى** " (ت١٠٥هـ) ويمثل الجانب الكوفي **سعيد بن جبير**" (ت ١٠٧هـ)

وإذا كان هذا هو موقف مدرسة التصوف بالمدينة فإن مدرسة البصرة أخذت شكلا محايدا في الدين والسياسة واتخذت الحياة شكلا هادئا جعل منهج الزهد ينمو في هذا الجو البعيد كل البعد عن الحياة السياسية مما جعل أساسه قويا يسير النقل والعقل معا ، وكان يمثل هذه المدرسة الإمام **أبو الحسن البصري** (ت١١٠هـ) فأسس مدرسة إسلامية في التصوف شيدت على الكتاب والسنة مهمتها كانت تربية رجالها والتزامهم بأخلاق الرسول ﷺ وحياة الخلفاء الراشدين ــ رضى الله عنهم ــ ومما يذكره **الحسن البصري** ويروى عنه أنه رأى سبعين صحابيا من أهل بدر يلبسون جميعا ثيابا من الصوف إشارة إلى زهدهم وورعهم ، وكان **الحسن البصري** من هؤلاء الذين لبسوا الصوف"(٧٥)

** **مدرسة الكوفة والأهواز .**

كان لهذه المدرسة منهج آخر غير مدرسة البصرة فقد ظهرت جماعة أطلق عليهم " **الروحانيون** " وعلى يديهم ظهر تغير كبير بين حياة الزهد في المرحلة الأولى وبين مرحلة الزهد في هذه الحياة ، فكانت نظرتهم إلى التكاليف الشرعية لا من حيث المظهر والشكل التي تجرى على الجوارح الخارجية بل اعتبروا أن هذا ليس مقصودا فحسب وإنما هناك معنى أرقى وأسمى وأعمق هو الطهارة القلبية ، فحاولوا جاهدين إلى محاربة متطلبات الجسد لمحاولة إنقاذ الروح من سجن البدن حيث الشهوات التي تحجب نور الروح والفرق شاسع بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح يقول ﷻ: ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها .** ﴾ الشمس ٧-١٠ .

(٧٥) كشف المحجوب ــ الهجويري ص٢٠-٢١

وإذا كانت الدنيا سجن المؤمن لأن الشهوات تحاصره من كل جـــانب ، وتجعل بينه وبين العبادة الخالصة لله تعالى ، فلابد من جهاد النفس وكسر هذا القيد للإفراج عن الروح حيث الانطلاق إلى رضوان الله تعالى :

﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي .** ﴾ الفجر ٢٧-٣٠ .

فالنفس البشرية حين تطهر بسبب جهادها وكثرة الذكر والتوبة والاستغفار فإنها تسير ــ بفضل الله ــ إلى منزلة غاية في الرقي والسمو الروحـــي فإذا بلغت تلك الغاية أفاض الله عليها من عظيم نعمه وكريم فضله وجزيل نواله .

وأخذ التصوف شكلا آخر في البصرة فظهرت في المناجـــاة والحـــب لله ومثل هذا ابن الفارض (٧٦) ورابعة العدويـــة (ت ١٨٥ هـ) وظـــهرت نظرية الحب الإلهي فكان مذهبا جديدا في هذه الفترة ، ومما ينسب إليـــها من مناجاتها ربها :-

أحبك حبين حب الهوى ... وحـــب لأنـــك أهل لذاك .
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذاتك عمن سواك .
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراك .
فلا الفضل في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الفضل في ذا وذاك

وقولها:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب .
ويا ليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب .
إذ صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب .

(٧٦) هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن الحموي الأصل ، المصري المولد بالقـــاهرة ، توفـــي ١٨٠ هـــ

وقال ابن الفارض :

ولكن لدى الموت فيه صبابة حياة لمن أهوى ،على بها الفضل .
فإن عشت أن تحيا سعيدا فمت به شـــهيدا ، وإلا فالغـــرام له أهل .
فمن لم يمت في حبه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل.
أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي يضركم لو كان عندكم الكل(٧٧)

وقال أيضا:

مالي سوى روحي ، وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف .
فلئن رضيت بها ، فقد أسعفتني يا خيبـــة المسعى إذا لم تسعف .
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى جفني وكيف يزور من لم يعرف(٧٨)

إلا أن هذا الحب الذي أشير إليه بالرمز اتهم أهله بالزندقة والكفر وربما كان الرمز خوفا من الحكام ، وإذا كانت هناك فتن تمنع التصريح فلا أقل أن يعبر عن أشرف حب وهو حب الله تعالى بالتلميح.

وقد شاع بين أهل الكوفة ثقافة غريبة عن المنهج الإسلامي في التصـــوف مثل " **نظرية التجسيم**" وهي أن العلاقة بين العبد وربه قائمة على نظريـــة التجسيم فالله ﷻ كما يفترون له طبيعة جسدية ﴿ **كبرت كلمة تخرج مـــن أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ الكهف ٥ .

كما أنهم وصفوا الله سبحانه بصفات الخلق من الفرح والحـــزن ، فـــإذا أطاعه العبد فرح بطاعته وإذ عصيه حزن لمعصيته ، والقصد مـــن وراء هذا الافتراء إمكان رؤية الله تعالى في الدنيا ، وقالوا إن الولي يقترب من الله حسب طاعته ويبتعد عنه حسب معصيته قربا وبعدا حسيا.

---

(٧٧) ديوان ابن الفارض ص١٣٤ "هو الحب" مطلع القصيدة .
(٧٨) ديوان ابن الفارض ص١٥١ من قصيدة " قلبي يحدثني"

** تعقيب .

على هذا الافتراء هذا المعنى بعيد كل البعد عن التصوف في المنهج الإسلامي بل غريب كل الغرابة فالله ﷻ ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ الشورى ١١ . وأنه ﷻ ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ الأنعام ١٠٣ .

وحكمنا على هؤلاء أنهم خارجون عن المنهج الإسلامي الذي يصف الله ﷻ بأنه واحد لا شريك له ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ الإخلاص ١-٤ .

وهذه الأفكار منقولة من البيئة النصرانية وتأثروا بأفكارهم ، وإذ تتبعنا تاريخ هذا الفكر الدخيل نجد أنه تسرب إلى المجتمع الإسلامي على يد "**مقاتل بن سليمان**" وكان هذا الخارج له رأي في صفات الله تعالى جعله كأحد خلقه ، وكانت له أراء في التشبيه ، وكان يروي الإسرائيليات من الأحاديث ، ومقالة التجسيد تنسب إليه"(٧٩)

وقد أدى هذا إلى تسرب فكرة " **الحلول والاتحاد** " في الأوساط الصوفية وكذلك " **وحدة الوجود** " وكلها أفكار خارجة عن المنهج الإسلامي عامة وفي التصوف الإسلامي خاصة وكانت **مأساة الحلاج** التي أسدل عليها الستار بقتله ، وكان في قتله العبرة على كل من تحدث عن الله بألفاظ تفيد الخروج عن المنهج الإسلامي .

(٧٩) نشأة الفكر الفلسفي د / سامي النشار ص٨٩ - ٩٠

• **مدرسة مصر وخراسان .**

كان يمثل التصوف في مصر " **ذا النون المصري** " وفي خراسان "**إبراهيم بن أدهم**"

وكان منهج **ذي النون** في التصوف مبني على أسس منها:-

١-السرية التامة بين التلاميذ بم يفيضه الله عليهم .

٢- كثرة الترحال والتجوال .

٣- مجاهدة النفس حتى تصل بفضل الله إلى الاسم الأعظم .

• **المعرفة عند " ذي النون" :**

تتدرج المعرفة عنده من أدنى إلى أعلى ، فتبدأ بمعرفة الظواهر الخارجية وتعتمد على الحواس والخبرة وملاحظة الظواهر المادية والتجربة ، هذه المعرفة تسمى " **المعرفة الوجدانية** " وتختلف من شخص إلى آخر وتختلف في الحكم على الشيء حسب وجدان الشخص نفسه ، وشبه هذه المعرفة بالجسد الخارجي للإنسان ، بعد هذا تأتى المرحلة الثانية في المعرفة وهي :

" **الحكمة العارية** : وكأن الحقيقة عنده كنز خفي يطلب كشفه وتعريفه وهي درجة عالية في المعرفة لأنها تخرج الإنسان من عالمه الحسي إلى عالم غيبي ، فالمعرفة في المرتبة الأولى تأتى عن طريق العقل ، أما في المرتبة الثانية فإنها تأتى عن طريق القلب.

والغاية واحدة وهي الوصول إلى معرفة الحق ، وهكذا تصل المعرفة إلى أسمى درجاتها وتسمى المعرفة " **بالفردانية** " وهي أسمى المعارف ،